مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 16 العدد: 01 السنة 2024 ص 755 - 774

تاريخ الإرسال: 2023/06/18 تاريخ القبول: 2024/04/10
تاريخ النشر: 2024/05/16

الانفعال الإبداعي في رواية الفضيلة للمنفلوطي بين الرواية والشعر
The Creative Emotion in the Novel of Al-Fadilah by Al-Manfaluti between Novel and Poetry

سارة سكيو [1]
جامعة باتنة1 (الجزائر) [1]sarah.sekkiou@univ-batna.dz
مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

الملخص:
تحوم أفكار هذه الورقة البحثية حول مناقشة مدى نجاعة وفعالية التجربة الانفعالية التي يمر بها الروائي أثناء إبداعه لروايته، حيث قد كان للحداثة دور كبير في توجه مسار الخطاب الروائي، وتحديد طريقة تفكير الروائيين والأدباء ككل، هذا الذي سمح بفتح باب تجربة الدمج بين عالم الإبداع الروائي والإبداع الشعري، هذا الذي لاحظناه في رواية الفضيلة لمصطفى لطفي المنفلوطي، الذي استطاع أن يلعب دور الروائي والشاعر معا في نفس اللحظة، وقد كان هذا لضرورة نفسية وانفعالية قد ساهمت في إذكاء جذوة الشعر عن المنفلوطي.

وقد انتبهنا إلى مدى اتساع رقعة الدفقة الانفعالية التي واكبت المنفلوطي، من خلال العبارات والالفاظ التي استخدمها في إذكاء شعلة قاموسه الشعري الذي لاحظنا من خلاله تأثره بقصة البطلين بول وفرجيني إلى حد قرض الشعر بأسلوب جدي وذي طابع حكيم وموزون تعبيرا عنهما واصفا منظوم الفضيلة.

الكلمات المفتاحية: الرواية؛ الحداثة؛ الشعر؛ الانفعال؛ الحكمة.

Abstract:

The ideas of this research paper revolve around discussing the efficacy and effectiveness of the emotional experience that the novelist goes through while creating his novel, as modernity has played a major role in directing the course of the narrative discourse, and determining the way novelists and writers think as a whole, which allowed opening the door to the experience of merging the world of novelist creativity. And the poetic creativity, which we observed in the novel Al-Fadilah by Mustafa Lutfi Al-Manfaluti.

We have noticed the extent of the emotional outburst that accompanied Al-Manfaluti, through the phrases and expressions he used to ignite the flame of his poetic dictionary, to express them describing the system of virtue.

Keywords: The novel; modernity; poetry; agitation; wisdom.

المؤلف المرسل: سارة سكيو، الإيميل: SARAH.SEKKIOU@UNIV-BATNA.DZ

1.مقدمة:

إن الأدب مفتاح للولوج إلى عالم الثقافات المختلفة، والتي نقصد بها تحديدا ولوجا للمجتمعات وما تحمله من تناقضات قد لا يكون لها منطق والرواية فن أدبي يفتح أبواب النقاش في هذا الموضوع، خاصة الرواية الحديثة والمعاصرة التي صارت تعكس الحقيقة وتحاول معالجة قضايا الحياة الكبرى، والمشتركة بين بني الإنسان، ورواية الفضيلة خير دليل على هذا الكلام لما تحمله من ابعاد إنسانية، وعليه قادنا تساؤل عما تحمله هذه الرواية؟ ومن أي زاوية تطرق المنفلوطي من خلالها إلى مفهوم الحداثة وتأثيرها؟ وهل استطاع هذا الأخير دمج عالمي الإبداع الروائي والشعري؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة سنتطرق من خلال هذه الأوراق من مداخلتنا إلى ذلك الانفعال الإبداعي الذي عادة ما يرافق المبدع لحظة إنتاجه الأدبي معتمدين على المنهج الوصفي، والميزة التي ستكون هنا في هذه المداخلة هو توضيح كيفية تتمة التجربة الرواية والشعرية معا عند المنفلوطي من خلال تأثره بأحداث رواية الفضيلة.

2.الأثر الروائي والحداثة:

الآثار الأدبية التي ينتجها المبدعون لطالما ساستها الانفعالات النفسية والعاطفية لهؤلاء وشكلت على إثرها ملامحها الكبرى، لذلك تختلف تجربة الفن/الإبداع من بعد نظر مبدع إلى آخر، بل إن التجربة الانفعالية في حد ذاتها تختلف عند الشخص ذاته في كل مرة يمر بها بتلك الدفقة الملهمة التي تحمله على انتاج المتون الفنية، نثرية كانت أو شعرية، ومهما تعددت الأسباب وتمايزت ابعاد اختيار المبدع للجنس الأدبي الذي هو بإزاء الإدلاء بدلوه فيه، إلا أنه قد صار لا يفتأ يجد نفسه اليوم في حاجة إلى المزج أو بالأحرى المرواحة بين هذه الأجناس الأدبية حتى يستطيع الوصول إلى مبتغاه من نتاجه الفني، أو بالأحرى – إن صح التعبير – قد صار صاحب الأثر الأدبي لا يصل في كثير من الأوقات إلى اكتمال وذروة عليا في اعماله إلا إذا استطاع خوض غمار المغامرة التعبيرية من عدة جوانب.

حظي الخطاب الروائي وخاصة في العصر الحديث والعاصر بمكانة عميقة في الساحة الأدبية، فقد أضحت الرواية أنسب جنس أدبي وجد فيه المبدعون ضالتهم وسط الفوضى التي يعيشها العالم ككل؛ ذلك حتى يستطيعوا تحويل أطيافهم الفنية وهواجسهم –ونحو ذلك– إلى مشاهد مروية تحاكي وتعبر عن الواقع الذي هم فعليا مظروفون بظروفه، فصاروا يستعملون هذا التوجه الأدبي بكثرة حتى يمكن ان نقول

أن الرواية اليوم كأنها مرآة العصر؛ لأنها قد صارت تنهل من مشارب ومناهل العديد من الأجناس الإبداعية الأخرى، وترتبط كثيرا بتوضيح فكرة تلك التواترات النفسية والأفكار الداخلية سواء كانت تلك التي يعيشها الاديب بشخصه أو ما يراه في مجتمعه ناقلا إياه على لسان حال شخصيات هذا المتن الروائي الذي يعتمد الأدباء فيه كثيرا على تصوير المواقف ونقل التصرفات خاصة منها تلك المبنية على أسس درامية، و"يتعلق الأمر في الرواية على وجه الخصوص في إبراز حالات العقل والأحداث، فيما يختص الأمر في الدراما بتقديم الطبائع والأعمال وينبغي على الرواية أن تتقدم ببطء، وان تعمل عواطف البطل الرئيسي على إبطاء مسيرة الكل نحو النتيجة... وينبغي على بطل الرواية أن يكون سلبيا أو أن يكون غير نشيط إلى اعلى مستوى على الأقل.."[1] ومفاد هذا هو أن ترتيب المشاهد في الرواية لابد أن يتم وفق أسس منطقية بطريقة ما أو بأخرى.

فلا يمكن مثلا الوصول إلى تأكيد في تغير موجات الأحداث وإحداث تغيير مؤثر يجعل من الحالة1 تتحول إلى الحالة2 إلا إذا كان هنالك تسلسل منطقي وواضح يصل بالمتلقي(القارئ) إلى ما يسمى بحالة الوعي في القراءة أي أن يكون مدركا بعقله صيرورة ما يحدث، أما الدراما فهي حجر الشطرنج الذي يحرك الشخصيات ويدفعها إلى التصرف وفق ما طبعت عليه من سجايا وطبيعة في العواطف التي على إثرها تتشكل ردود الأفعال المساهمة في انتقال الشخصيات من حدث إلى آخر، وفق وتيرة متسارعة لا تكون بالضرورة محمولة على المنطق القريب، وعلى هذا الإثر يكسر الأديب افق توقع المتلقي، خاصة حينما يتعلق الامر بتصرفات الشخصيات المحورية التي تحرك صفحات الرواية، والتي تكون لا محالة في المتن غير مدعمة بأسباب ودوافع مفهومة وفي كثير من الاسطر عكس التيار الموجب،

"وسلبية بطل الرواية هذه، هي ضرورية لابد منها حتى نستطيع أن نبرز صورة العالم المتعاظمة من حوله وعلاقته بها.. من ناحية.

غير أننا نلاحظ عكس ذلك في الدراما، فالبطل الفاعل يدفع بأحد التناقضات في المجتمع إلى أقصى حد. ونرى في هذه النظرية بروز طابع خصوصي جوهري للرواية (دون أن يكون المنظرون على وعي ذلك) وهو: العجز الذي هي عليه الرواية البورجوازية في مجال تجسيد (بطل إيجابي) من ناحية أخرى"[2] فنعم تختلف وتتعدد أنواع الخطاب الروائي نظرا لعدة اعتبارات، ووفق هذا التباين تتحدد مقصدية الأديب وهدفه من خطابه هذا، ولقد لفت انتباهنا الرواية البورجوازية التي تحمل انعكاسات الطبقة المخملية في كل مجتمع يحمل انعكاسات هذه الطبقة الاجتماعية ذات التوجه المادي الأرستقراطي، وتداعياتها على المبدع الروائي وشخصياتها وحتى متلقيه، فهذا المسار الأدبي قد عالج بؤرة ساهمت في تصدع الكيان الإنساني ككل، فقد صار الشخص الانسان كفرد في المجتمع يحس – بطريقة ما– أنه مصنف حسب درجات ومعايير لا يختارها هو، بل يشكلها له القدر والمجتمع وتفرض عليه.

وقد شطرنا بالقول إلى أن الأثر الروائي في العصر الحديث والمعاصر قد صار لا مناص لأصحبه من أن ينغمسوا في المدارات النفسية المصاحبة لشخصياتهم الفاعلة، تلك التي لها سلطة التحكم في زمام الأمور، لهذا امتدت جذورهم التعبيرية وقفزت للدمج بين عالم الإبداع الروائي السردي وبين الأثر الشعري على وجه الخصوص، طبعا كلامنا هذا محكم في إطار البيئة الأدبية العربية، وقد لاحظنا أن هذا الدمج بين السرد والشعر قد كان للأدباء والروائيين المصريين حصة الأسد منه، تحديدا في تلك الفترة الزمنية التي كان يعاني فيها هؤلاء المبدعون من الهشاشة الفكرية والوجدانية بسبب عبورهم إلى منطقة الانفتاح الثقافي على الآخر

والذي نقصد به في هذا المقام بلاد الإفرنج الأوروبية فقد لوحظ أن "شخصية المثقف في الرواية المصرية، قد تكاملت فيها عقدتان نفسيتان لا عقدة واحدة.

فلقد رافق الشعور بالقصور أو النقص تجاه الحضارة والثقافة الأوروبية شعور المثقفين المصريين بالاستعلاء– عندما شبوا عن الطريق– تجاه أغلبية مواطنيهم الاميين في الغالب الأعم... فالمثقفون في المجتمع المصري خلال الفترة الزمنية كانوا يمثلون أقلية نادرة تسبح وسط محيط عريض من الكتل البشرية التي قد تبدو للمثقفين وكأنها ليست لها قوتها وطاقاتها الفكرية والثقافية الخاصة"[3] هذا الذي يقودنا إلى تجربة مصطفى لطفي المنفلوطي الذي استطاع من خلال تذوقه لطبع الرواية الغربية كمصدر يترجم منه إلى إبداع ثان يدمج فيه عالم الرواية المشبعة بالأفكار والمدارات الأخلاقية في البلاد الأوروبية، وبين ما جبل عليه المبدع في العالم العربي وهو التعبير عن انفعالاته وتجاربه وأنماطه الوجدانية والفكرية بواسطة الشعر فطرة وعلى السليقة.

1.2 مسردية المنفلوطي في رواية "الفضيلة" وتداعياتها على تجربته الشعرية:

إن من المتعارف عليه في عالم الإبداع الأدبي هو أن الرواية تطرق أبواب الواقع والمجتمع؛ بحيث تعبر عن قضاياه وتحاول معالجتها من خلال تلك التجارب والأحداث التي يعيشها شخصيات هذه الأخيرة سواء الأبطال المحوريين أو الشخصيات الثانوية أو المساعدة، حتى يتسنى للمتلقي(القارئ) أن يأخذ التجربة من أحداث معاشة من لدن هذه الشخصيات ولو كانت ورقية الحضور، أو على الأقل ستعلق في اللاوعي الفردي للقارئ هذه المشاهد التي لها دون أية شك ابعاد سيكولوجية عليه في المستقبل القريب أو البعيد، وقد "ظلت الرواية حديثة على الدوام: فقد كان الشغل الشاغل للرواية دوما وعلى نحو رئيسي هو الحياة المعاصرة والأشياء الجديدة المستحدثة في هذه الحياة كما توحي بذلك مفردة(الحديثة)، ولكن في وقت ما

من (عام 1900 أو عام 1922) عنت–وعلى نحو مفاجئ– تطال كل شيء، وبدا الأمر آنذاك كما لو أن الحداثة قد شطرت العالم شطرين وفجرت كل الاستمراريات الموصولة بالماضي وهو الأمر الذي نشأ عنه وضع جديد للشخصية الإنسانية والحياة ذاتها معا إذ باتا في حالة من التغيير المستديم"[4] وإن شطرنا إلى أطياف المعاني التي تحوم حول مفهوم الحداثة للاحظنا أن مقصدها في العموم يتعلق بالقيام والثورة ضد كل فكر قديم يحد من استقلالية الفرد ويقصي شعوره بذاته.

إن الفرد بطبيعة الحال جزء لا ينفصل عن المجتمع لذلك الرواية " تمثل نوعا من الذاكرة الجمعية المميزة لكل جغرافية بشرية، فهي في هذا الإطار تصبح بمثابة (خزانة الحكايات) التي تحفظ المزايا المجتمعية والأنثروبولوجية لكل جغرافية بشرية، ويمكن من خلالها الإطلالة على العادات والتقاليد وأنماط العيش وفنون الطبخ والأزياء والملابس السائدة في كل عصر إلى جانب كل التفاصيل الحياتية الأخرى الخاصة بالحب والزواج والصداقة والرفقة والسفر... لذلك يظن الكثيرون أن الأعمال الروائية لعصرنا ستنهض في الألفيات القادمة بذات الدور الذي نهضت به الرقم الطينية والسجلات الاثارية التي أمدتنا بكنز لا ينضب من المعلومات حول الحضارات القديمة"[5] فتلك الموروثات الثقافية والأنماط العليا التي تنتقل –أو بالأحرى تقفز– من جيل إلى آخر في اللاشعور الجمعي للمجتمعات نجد أنها تطفوا بشكل واضح في المتون السردية الرواية.

طبعا إن الأنماط العليا تظهر في طبقات الرواية وبنياتها سواء العميقة أو السطحية حتى وإن لم يقصد الروائي التصريح بوجودها أو الإدلاء بخصوصياتها؛ ذلك أنها حقيقة لا بد من بروزها للعلن خاصة في الأعمال الفنية أدبا كان بكامل فروعه وأجناسه أو رسما أو نحتا وقس على ذلك..

إن الخطاب الروائي الموسوم ب"الفضيلة" للأديب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي أثر سردي أصله أوروبي المصدر؛ حيث ترجمت هذه الرواية عن العمل الأصلي المعنون برواية(بول وفرجيني) للكاتب الفرنسي برناردين دي سان بيير، ومن الواضح للقارئ أن انفعال المنفلوطي وتجربته التي خاض أحداثها وهو يعالج هذه الرواية ويترجمها للغة العربية يتضح جليا من خلال قوله التالي[6]:

" يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام، ومن الفتاة الأدب والحياء، لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها، ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه، فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتيان مصر وفتياتها؛ ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التي أحب أن أراها فيه، وليضعا حياتهما المستقبلية على أساس الفضيلة كما وضعها: بول وفرجيني.." فهذا التصريح الذي استهل به المنفلوطي صفحات رواية الفضيلة يعد مفتاحا لفتح الباب الذي يعبر بنا إلى تلك الضفة التأثرية والتأثيرية التي تولدت عند الأديب المصري من خلال تناوله لمحطات ومشاهد الأحداث هنا.

تتعلق رواية الفضيلة بفضاء الطبيعة كثيرا، فهي مملوءة بتلك الأبعاد الاثنوغرافية ن وتدور أحداثها في جزيرة(موريس) والتي " هي إحدى الجزر الإفريقية الواقعة في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة مدغشقر وعلى مدى غير بعيد من جزائر(سيشيل)، وهي جزيرة قفراء بلقع ليس بها إلا قليل من السكان السود متفرقين في جبالها وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من المهاجرين الأوروبيين النازلين بينهم ويسخرونهم في حراثة الأرض واستنباتها واستخراج معادنها واستنباط أموالها وتقليم أشجارها، كما هو شأن المستعمرين الأوروبيين في جميع الأصقاع التي يعيشون فيها"[7] حيث سيشهد البساط الجغرافي لهذه الجزيرة ويحمل أحداث قصة الحب العذري بين بول/فرجيني، فمستهل الرواية يكون بدءا ذي بدء بذكر أهمية الطبقية وتعددها في المجتمع الفرنسي، وخاصة الطبقة البورجوازية التي كانت تنتمي إليها

والدة فيرجيني واسمها هيلين، وكيف أنها تخلت عن حياة البذخ والرفاهية فقط من أجل الزواج بحبيبها المتوسط الطبقة، فهربت إلى هذه الجزيرة وتزوجا فيها، ومع مرور الأيام ولسوء القدر يتعرض زوج هيلين إلى حادث جعله أمام الموت الحتمي ليترك بسبب وفاته زوجته هيلين وهي حامل بطفلتها فرجيني التي كبرت في رعاية والدتها على حب الآخرين وطيب الأخلاق والسمو الفكري.. ولم تكبر فرجيني وحدها، بل كان لها أنيس في طفولتها وهو بول، ابن المرأة العاملة مع هيلين والتي كانت لها بمثابة الأخت.

ومع مرور السنوات وتقدم الأيام كبر الطفلان وكبر معهما حبهما لبعضهما البعض، وتحول من نمط الصداقة إلى نمط الحب، ولكنه كان حبا عذريا مبنيا على العفة والحياء، وإتيان الفضل بينهما، فضل تلك الأيام البريئة الطاهرة التي جمعت بينهما منذ خلقا في الدنيا، يؤكد المنفلوطي بشكل مسهب طبيعة هذا الحب، حتى أنه أردف وخصص الكثير من صفحات الرواية مادحا أخلاق البطلين ومتغنيا بسمو أخلاقهما وطريقة اكتشافهما لهذا الشعور الجديد، وكيف أن حياء فرجيني قد حرك فيه العديد من التساؤلات والتمنيات، فيسترسل في الإطراء على نوع مشاعرهما من خلال مسرديته في الرواية.

تتغير بعد هذا السكون العاطفي بين البطلين أو بالأحرى بعد راحتهما وتوازنهما في الحب والمشاعر متوجهة صوب منعطف اللاعودة ؛ حيث تتسارع الأحداث بمغادرة فرجيني لجزيرة موريس متوجهة نحو بلاد فرنسا، علها تعيش حياة أفضل وتنال تعليما اعلى بطلب من والدتها، كل هذا سيكون تحت كنف ورعاية عمة والدتها هيلين، ليبدأ لحظتها صراع البطلة مع ذلك التصدع الأخلاقي والتشظي الهوياتي نظرا لبرودة التعامل المدنس الذي يبادله أصحاب الطبقة البورجوازية بعضهم البعض؛ حيث حاولت عمة هيلين أن تنحت روح فرجيني وتصقل هويتها

وتسيرها وفق مبادئ هذا المجتمع، ثم تزوجها كضرورة حتمية لأحد أغنياء هذه الطبقة مما يولد لدى البطلة (فرجيني) صدمة نفسية جعلتها تنفر من كل أعراض هذا المجتمع الذي يبدو في ظاهره متحضريا يعمد إلى الحضارة، غير أن في باطنه سجايا مشوهة وطباع دنيئة لا يحمل أصحابها سوى البحث عن المصلحة من بعضهم البعض هذا الذي تبوح به من خلال رسالة بعثتها إلى والدتها(هيلين) مفادها الآتي والدتي: " كتبت إليك قبل اليوم كتبا كثيرة، ثم علمت من عهد قريب أنها لم تصلك، فأرسلت إليك هذا الكتاب من طريق آخر غير الطريق التي كنت أرسل إليك منه.. لا أحدثك كثيرا عن سفري وأدواره سوى أن أقول لك إن فراقك كان له تأثير على نفسي عظيم، ما كنت أقدره من قبل، فقد بكيت كثيرا وتألمت كثيرا، حتى رحمني من كان معي، وكان يخيل إلي والسفينة تمخر بي في عباب البحر أنني غنما أفارقك فراقا لا رجعة لي منه أبد الدهر، ولقد شعرت بوحشة عظمى في الساعة التي دخلت فيها قصر عمتي، فقد خيل غلي أنه على جماله ورونقه، وحسن نظامه وبديع هندامه، وكثرة الذاهبين والآتين في أبهائه وحجراته، مقبرة موحشة لا نأمة فيها، ولا حركة"[8] إن حزن فرجيني منذ بداية فراقها لوالدتها اكتمل أكثر بعدما وصلت إلى تلك البلاد الإفرنجية البعيدة.

فصحيح هي لم ترى قصرا في حياتها من قبل ولم تعلم ما مدى قابلية الإنسان في أن يكون مخدوما لا خادما، لكنها حين أدرك كل هذا أبدت امتعاضها الشديد منه، فجأة بالنسبة لها لقد انقلبت الأدوار بسرعة كبيرة، ولعلها بدأت بالشعور بالنقص حين ذكرت "سألتني عمتي حين وقفت بين يديها بصوت خشن جاف لا تجول في اديمه قطرة واحدة من الرحمة: ماذا تعلمت في صغري؟ فلما عرفت انني لم اتعلم شيئا حتى القراءة والكتابة قالت: إنك لا تزيدين في شأنك على شان هؤلاء الخدم الوقوف بيد يدين ولم تنشئي منشأ خيرا من منشئهم، ثم أرسلت بإرسالي إلى

دير في ضواحي باريس أتعلم منه فيه أنواع العلوم، فعلموني القراءة والكتابة، فسرني منهما أني أستطيع مراسلتك وقراءة رسائلك..."[9] طبعا لم تكن لدى فرجيني أي فكرة حول نمط عيش عمتها، ولنقل أنها قد كانت منذ البداية تحاول مجاراتها وفهم طريقة تفكيرها، فلم تكن تعلم أحقا عمتها تحبها أو أنها تكرهها أو ببساطة هي لا تشعر بمشاعر تجاهها وفقط تريد أن تستخدمها لغرض ما..

ويبدو أن فرجيني قد بدأت تلاحظ تغيرا في طبيعة تعامل من حولها معها، والأمر الذي زاد الأحداث تعقيدا عليها هو تصرفات عمتها فقالت ان "عمتي تعنى بي عناية كبرى، وتبذل في سبيل راحتي ورفاهيتي وتيسير جميع مرافقي وحاجاتي مالا كثيرا، وقد خصصت لخدمتي فتاتين متأنقتين، من وصائفهما لا عمل لهما نهارهما وليلهما إلا القيام على زينتهما وحليتهما وقضاء ما يتبقى من أوقات فراغهما في أحاديث تافهة مرذولة لا لب فيها ولا ثمرة، كأنما تمثلان على مسرح، أو تلعبان في ملعب، ويخيل إلي أن عمتي قد أوزعت إليهما الا تدعواني بلقبي الذي أحبه وأوثرهن فهما تسميانني دائما(الكونتة فرجيني) بدلا من(فرجيني دي لاتور) أي أنها تأبى علي أن أحمل اسم والدي الذي أحبه وأعطف عليه وأفخر به كل الفخر.."[10] طبعا يحاول المنفلوطي من خلال الصفحات التي وصف فيها طريقة عيش فرجيني في فرنسا أن يوضح أمرين مهمين، أولهما هو تلك الحداثة والنقلة التي تلاحظ في نمط عيش فرجيني، فهي وليدة بيئة بسيطة تأخذ من الطبيعة و حب الآخرين هواءها الذي تتنفسه، ولكن فجأة تعرفت على طريقة مختلفة للعيش تتناقض تماما مع ما ربيت عليه، وكأنه لا يوجد شيء يسمى صداقة أو حب أو إحسان للآخرين.

أما الأمر الثاني الذي يسلط عليه المنفلوطي الضوء هو طبيعة الطبقة الأرستقراطية في العيش، وكيف أنهم فعلا يقدرون مكانة العلم والفنون، ولا بد من أن يتعلمها أي شخص ينتمي إلى طبقتهم لذلك كانوا ينعتون غالبا بالطبقة المثقفة، ولكننا

حين نتأمل رسالة فرجيني تتضح لنا تلك الصورة التي تريد هي نقلها أن هذا الأسلوب في الحياة بارد، لا يناسب أيا كان، بل يحتاج إلى أن يلغي الإنسان كل ما فيه من صفات طيبة أو حتى مشاعر طبيعية، وفقط يتصرف نظرا للمصلحة وحتى المشاعر عندهم إن وجدت فهي محمولة على الرذيلة و الفحش والحسية الجسدية في التعامل.. فعلى إثر هذا وبسبب أنه قد طفح الكيل وتلك القطرة التي افاضت الكأس وهي رغبة عمة هيلين تزويج فرجيني رغما عنها لثري من أثرياء فرنسا، قررت فرجيني التخلي عن كل شيء والانسلاخ من هذا العالم الذي لا يشبههما في أي شيء رغم محاولات كل من هم حولها في أن يصنعوا منها (الكونتيسة فرجيني) بدلا من (فرجيني دي لاتور) كل هذا بالإضافة إلى حنينها إلى أهلها وإلى من كانت تسكن إليه دوما بول، قد جعلها تقرر العودة إلى جزيرة موريس دون أن تلتفت وراءها مجددا. هذا الذي يحرك الدفقة الانفعالية لقول الشعر عند المنفلوطي فيذهب قائلا[11]:

إنَّ عيش المرء في وحدته ... خير عيش كافل خير هناء
فالورى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ ... وشقاءٌ ليس يحيكه شقاء
وفقير لغنيٍّ حاسدٌ ... وغنيٌّ يستذلُّ الفقراء
وقويٌّ لضعيف ظالمٌ ... وضعيف من قويّ في عناء
في فناء الأرض منأى عنهمُ ... ونجاءٌ منهم أيُّ نجاء

تجود قريحة الشاعر هنا ونعم قد تصير الأديب الروائي وتقمص دور الشاعر بعدما اعترته تلك الحالة التفاعلية مع ما يتعرض له شخصيات هذه الرواية، ولم تقتصر أبياته على الشخصيتين الرئيسيتين فقط(بول/فرجيني)، بل لا بد أن نذكر أن المنفلوطي منذ بداية الرواية قد أسهب وأخذ كامل الوقت المتاح واصفا خصال والدة فرجيني(هيلين) وما اتسمت به من حب للآخرين، وكيف أنها بعد وفاة زوجها قد

تمالكت نفسها وشمرت على ذراعيها، وبدأت بالعمل الدؤوب من زراعة ورعاية للأغنام..، وقد نعظم هذا ونقدره فعلا عندما نرجع بذاكرتنا إلى ان جذور هيلين تمتد من طبقة غنية أرستقراطية، فكيف لها أن تتنازل لهذه الدرجة وتعمل، ليس هذا فحسب بل بسبب طيبة قلبها ورقة مشاعرها صنعت صداقات عديدة، أهمها تلك التي كانت مع امرأة زنجية من العبيد وهي دومينيغ والدة بول.

فالأبيات الشعرية الآنفة توضح حكمة في العيش وطريقته، التي مثالها الذي يحتذى هو هيلين في هذا المنبر، ففعلا هي التي تخلت عن الظلم الذي كانت توجهه عائلتها للآخرين وخاصة لزوجها وعائلته، فابتعدت عنهم وعن ذل العيش معهم، وشحة المشاعر، وجعلت من الفيافي ووديان جزيرة مويس بيتا جديدا لها، تتقاسمه مع دومينيغ ومن معهم من الأصدقاء.

كل هذه الأحداث أدت إلى نهاية جدا مأساوية فعلا قد أثرت في ذات ونفس الأديب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي لدرجة أن القارئ لصفحات هذه النهاية، يستشعر مدى حزن الأديب من خلال القاموس الأدبي الذي استخدمه معبرا من خلاله ومن خلال عبارات قوية عميقة عن مدى صدى ذلك الحزن الدامغ في القلب، حيث تجلت النهاية في مشهد موت فرجيني غرقا على متن السفينة التي كانت تحملها إلى الديار هربا من عمتها ومجتمعها ككل، وغرق السفينة كان بسبب وعلى إثر هبوب عاصفة قوية فكل هذا كان أمام أنظار اهل فرجيني، فقد كانت السفينة تتمزق وفرجيني على متنها، كل هذا كان بالتعبير كما يلي:

" وبينما نحن ذاهلون عن أنفسنا، وعن كل ما يدور حولنا، إذ طرق آذاننا صوت عظيم فاستفقنا، فإذا السفينة قد اصطدمت بإحدى الصخور العظيمة، وإذا آخر جَريرٍ من أجرتها قد انقطع، فانبعث في تلك اللحظة صيحة ألم من جميع

القلوب، وإذا (بول) يهجم على البحر ليلقي بنفسه فيه، فاعترضت طريقه أنا ودومينج وحاولنا أن نمنعه فلم نستطع وظل يصيح دعوني أنجي فرجيني، فلم يكن لنا بد من أن نتركه وشأنه، غير أننا عقدنا في وسطه حبلا وأبقينا طرفه في أيدينا خوفا عليه من الهلاك..."[12] يتأتى للمتلقي أن يحس بمدى تأثر الروائي في هذه الصفحات، فحتى مشهد غرق فرجيني لم يصفه هكذا ببساطة ومر عليه مرور الكرام، بل من شدة تأثره وانفعاله مع هذا المشهد العظيم أسهب في عدد الصفحات التي تعبر عنه على أن تصل الكلمات إلى لحظات فرجيني الأخيرة التي وصفها بأعمق وأبلغ العبارات:

" أما(فرجيني) فلم تخف ولم تطش بل لبثت في مكانها كما هي وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيهان فضمت قميصها إلى جسمها بيد، ووضعت يدها الأخرى على قلبها، وسبخت بنظرها في الفضاء فأصبح منظرها منظر ملك كريم يطير بجناحيه في جو السماء. وما هو إلا أن أغمض الواقفون عيونهم جزعا من هذا المنظر الهائل المخيف، ثم فتحوها فإذا البحر قد ابتلع كل شيء وإذا كل شيء قد انقضى."[13] وهنا تنتهي حكاية فرجيني ودورها في الرواية بطريقة قاسية جدا، ربما كانت الثمن الذي دفعته بسبب طهارتها وعفتها وتمسكها بأخلاقها رافضة نمط عيش مملوء بدسائس وأخبث الصفات.. فيقول المنفلوطي موازيا بين تجربة الرواية والشعر[14]:

ما لهذا الجوِّ أمسى قاتمًا ينذر النَّاس بويل وبلاء
ما لهذا البحر أضحى مائجًا كبناء شامخ فوق بناء
وكأنَّ الفلك في أمواجه ريشة تحملها كفُّ الهواء
و(لفرجيني) يدٌ مبسوطة بدعاءٍ حين لا يجدي دعاء

ولتكتمل حلقة الفضيلة التي جمعت أبطال هذه الرواية ومن صدقهم وحبهم لبعضهم البعض، توفي بول من شدة حزنه على فرجيني بطريقة جد مؤثرة، فقد وجدته والدته ميتا بعد ثلاث سنوات من موت فرجيني.. وجدته مستلقيا على قبر فرجيني وقد كانت جثة هامدة.. لتموت بعده بقية العائلة هيلين والدة فرجيني ودومينغ والدة بول من شدة الحزن والحسرة على ما حدث، ليقول الروائي في هذا الموقف[15]:

ولَا عين إلَّا وهي عينٌ من البكا ولا خدُّ إلَّا للدُّموع به خدُّ

إن أحداث هذه الرواية وتتالي مشاهدها القوية التواترات، تجعلنا ندرك تماما مدى انفعال المنفلوطي ليس فقط كروائي، بل كأديب وإنسان قبل كل شيء، هذا الانفعال الجامع بين مشاعر الكره والحب، كره المجتمع الذي هربت منه فرجيني وحب مبدا الفضيلة والعفة والصدق الذي جمع بينها وبين بول خاصة، وقد لا نستغرب من أنه "في الواقع أن جميع الانفعالات السابقة يمكن أن تثار في نفوسنا دون أن نعي، بأي طريقة كانت، إن كان الغرض الذي يسببها سيئا أو جيدا، ولكن حين نتصور أن سيئا ما هو جيد بالنسبة لنا أي أنه مناسب لنا فإن هذا يجعل الحب يسري في قلبنا نحوه، ولكن حين نتصوره سيئا أو مضرا فإن هذا يثير فينا الكره"[16] فلن نستغرب إذن طبيعة ونظرة المنفلوطي لهذا العمل ككل، فكل هذا الانفعال منه أدى به إلى أن ينتقل من دور الروائي إلى دور الشاعر، وأدى به إلى أن تجود قريحته لنظم قصائد تحاكي هذه المشاعر، ولنذكر نظمه الآتي[17]:

لهفي والماء يطفو فوقه هيكل الحسن وتمثال الضِّياء
زهرة في الرَّوض كانت غضَّة تملأُ الدُّنيا جمالًا وبهاء
من يراها لا يراها خلقت مثل خلق الناس من طين وماء
ظنَّت البحر سماء فهوت لتباري فيه أملاك السَّماء
هكذا الدنيا وهذا منتهى كلِّ حسي، ما لحيٍّ من بقاء

مقاطع شعرية من الحكمة ينظمها المنفلوطي، ففعلا تعتبر فرجيني عبرة للكثيرين، فللحياء والشرف العفيف ثمن باهض في زمن الحداثة، وخاصة في مجتمع لا يرى من الإنسان سوى وجوده المادي، وما يضاهيه من قيمة مالية. ولقد "عرف العرب الشعر على أنه بوح وجداني، وتدفق للمعاني والأخيلية وسديم من العواطف، وجيشان قلبي، وكم نغمي ينساب–خلال العمل الشعري– وداعة وإيحاء وتأثيرا، ولم يعرفوه على أنه كلام موزون مقفى إلا عندما طغت الاتجاهات العقلية، والمنطقية لدى العرب أمثال (قدامة بن جعفر) ... "[18] وما له قدرة إذكاء جذوة الشعر عند المبدع عادة ما يكون حركة في المشاعر و العواطف، أي أننا سنعود لكلامنا حول الانفعالات ونشطر إليها، فقد لا يتسنى لأي مبدع حتى ولو كان أديبا روائيا ممتازا أن يطرق باب الإبداع الشعري إلا إذا حقا قد أثرت فيه تلك التجربة التي هو بصدد سردها بين صفحات روايته. فقد أعجب الروائي كثيرا بخصال فرجيني حتى أنه قال[19]:

ليت(فرجيني) أطاعت(بولسا) وأنالته منـاه في البقاء
ورثت للأدمع اللاتي جرت من عيون ما درت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقته ساعة لكنَّه رأي القضاء
فارقته لم تكن عالمة أن يوم الملتقى يوم اللقاء
ما(لفرجيني) و(باريس) أما كان في القفر عن الدنيا غناء؟
إن هذا المال كأس مزجت قطرة الصهباء فيه بدماء
لا ينال المرء منه جرعة لم يكن في طيّؤها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهرا يدهش الألباب حسنا ورواء

عاطفة الشاعر هنا مليئة بالتفاعل الذي يولد في النفس حركة من الشجون العاطفي، فصار يقول شعرا يفيد التمني لعل الذي تمّ وحصل لم يكن ليكون لو أن فرجيني اخذت بكلام بول ومنعه إياه من الذهاب، فهو يتحسر على ذهابها في الأبيات الأولى، ثم يبدي إعجابه بما حملته هذه الفتاة من العفة والشرف، فقد تخلت

عن الكنوز التي صارت اليوم لا ترفض بل صار يدفع مقابل الحصول عليها أي ثمن مهما كان ولو تعلق بشرف الكثيرين.. إلا أنها أبت إلا أن تعود إلى عهدها القديم إلى عائلتها التي قادها الحنين والاشتياق إليهم فحتى بعدما عاشرت هؤلاء القوم من الطبقة الأرستقراطية وذاقت من جماليات وايجابيات أسلوبهم في الحياة من بذخ وثراء ونحو ذلك، غير أنها فضلت حياة الفقر الذي أحبته ورضيت به، بل كانت تراه أفضل ما في الوجود.

بالأخص بعدما كتبت إليها هيلين رسالة ساعدتها في اتخاذ قرارها والعودة إلى أحضان عائلتها الحقيقة، حيث "كتبت هيلين إلى ابنتها كتابا قالت لها فيه: إنها وجميع أفراد الأسرة أصبحوا بعد فرقتها في وحشة مخيفة لا يهونها عليهن شيء من الأشياء، وإن الموت أهون عليهم من أن يعيشوا بعيدين عنها منقطعين عن رؤيتها، وإنها لا ترى بأسا من روعها إلى الجزيرة متى أرادت ذلك"[20] حقل العاطفة أقتحم الرواية وملأها بجو من الحزن والضياع صار يعيشه كل أفراد هذه العائلة، فرحيل فرجيني حرك الكثير من المشاعر التي تتوجه معظمها نحو الضياع والحزن الشديد.

إن الشعر يتناول بدرجات متفاوتة طبيعة الإحساسات خاصة تلك المفعمة بالعبق التاريخي وبكثير من الموضوعات المتوارثة، كالحب والندم، والجمال، والموت، والوجد، والصد والجوع، والحرمان، والحنين، والشوق... الخ وهي موضوعات أكثر عمومية وانتشارا في الأعماق الإنسانية لكنها أكثر خصوصية لدلالتها الصادقة والأصلية على تلك الأعماق الإنسانية، والشاعر عندما يعترف بتلك الموضوعات ومعايشته لها ويبوح بكلماتها إنما يأتمن الناس عليها من غير بادرة شك..[21] لهذا قد ذكرنا –مما تم طرحه آنفا– أن أسلوب المنفلوطي في معظم أوراق الرواية مملوء بحقل الطبيعة، ويسهب في استخدامه كثيرا، حتى أن خصص صفحات عديدة فقط لوصف جزيرة(موريس) وما تمتعت به من خصائص ومناخ وأنهار ونحو ذلك. ومن

القصائد التي توضح تجربة المنفلوطي بين صناعة الخطاب الروائي والإبداع الشعري ما يذهب إليه قائلا[22]:

يـا بنــي الفقــر ســلامٌ عــاطرٌ مــن بنــي الــدنيا علــيكم وثنــاء
وســقى العــارض مــن أكــواخكم معهــد الصــدق ومهــد الأتقيــاء
كنــتم خيــر بنــي الــدُّنيا ومــن ســعدوا فيهــا ومــاتوا ســعداء
عشــتم مــن فقــركم فــى غبطــة ومــن القلــة فــى عــيش رخــاء
لا خصـــام، لا مـــراء بيـــنكم لا خــداع، لا نفــاق، لا ريــاء
خلـــق بـــرٌّ وقلـــب طـــاهر مثل كـأس الحـرِّ معنـى وصـفاءُ

أخذ الانفعال الشاعر ومنحه فرصة إنشاء الدفقة الشعرية التي اخذت هذا الأخير إلى نظم أبيات يصف فيها ما مرّ به من تجربته في الرواية ككل، فقد تناسب طرديا الإبداع الروائي مع الشعر، بطريقة لاءمت التعبير عن مدى عمق مجريات الأحداث، ودرجة تأثر المنفلوطي، الذي أبى إلا أن يمدح خصال هذه العائلة التي عاشت الكثير من المآسي ولكنها صمدت أمام واقع المادة والتفرقة الوجودية، فحتى ذلك الحب العذري الذي بدأ عفيفا بين بول/فرجيني وانتهى قبل أن يبصر النور قد انتهى بطريقة درامية جد مأساوية، وبهذا صارت قصة لبطلين رمزا للتضحية وميزان الفضيلة في الحب سواء ذلك الذي يكون بين الأصدقاء والعائلة، أو بين الحبيبين.

4.خاتمة:

صفوة القول فيما تم عرضه في هذه الورقة البحثية هو أن:

✓ الرواية تعتبر أهم الإبداعات الأدبية التي من خلالها يبث الروائي آماله وأفكاره، خاصة منها تلك التي تعبر عن مكبوتاته فيبثها في كل شخصية يخلقها، وأن الحداثة قد طغت على كل جوانب الحياة، وبمأن الخطاب الروائي تعبير عن الحياة

وانعكاس للواقع، فقد عرف الروائيون عدة إسقاطات للفكر الحداثي في رواياتهم وفق تناسب طردي.

✓ مصطفى لطفي المنفلوطي أحد أهم الروائيين الذي اقتحموا مجال الانفتاح الثقافي على الآخر، خاصة ذلك الذي صنعته الحداثة مما فتح باب التذوق للآداب الأوروبية، ورواية الفضيلة ترجمة مضافة للرواية الأصلية بول وفرجيني للكاتب برناردين دي سان بير.

✓ فعالية الدمج بين الإبداع الروائي والشعر، وهذا ما لاحظناه من خلال تجربة المنفلوطي المملوءة بشحنات انفعالية، فقد اكتملت تجربة الأديب المصري التي بدأها في روايته من خلال العروج على عالم الشعر، الذي به استطاع الوصول إلى ذروة العبرة من رواية الفضيلة.

5.المراجع

[1] جورج لوكاتش، نظرية الرواية وتكورها، تر: نزيه الشوفي، دار كيوان للطباعة والنشر،2016، ص26.

[2] المرجع السابق، ص26.

[3] عبد الله أبو بكر الأنصاري، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع: لبنان، ط1، 1985، ص473.

[4] جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، تر: لطيفة الدليمي، دار المدى، ط1، 2016، ص31.

[5] المرجع السابق، ص8.

[6] مصطفى لطفي المنفلوطي، الفضيلة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع: العلمة، الجزائر، ط1، 2011، ص3.

[7] المصدر السابق، ص5.

[8] مصطفى لطفي المنفلوطي، الفضيلة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع: العلمة، الجزائر، ط1، 2011، ص94.

[9] المصدر السابق، ص94.

[10] المصدر السابق، ص94-95.

[11] المصدر السابق، ص140.

[12] المصدر السابق، ص118.

[13] مصطفى لطفي المنفلوطي، الفضيلة، ص120-121.

[14] المصدر نفسه، ص141.

[15] المصدر السابق، ص139.

[16] رينيه ديكارت، انفعالات النفس، تر: جورج زيناتي، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص47.

[17] مصطفى لطفي المنفلوطي، الفضيلة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع: العلمة، الجزائر، ط1، 2011، ص141-142.

[18] عبد الرؤوف أبو السعد، مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي، دار المعارف: القاهرة، ط1، د.ت، ص15.

[19] مصطفى لطفي المنفلوطي، الفضيلة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع: العلمة، الجزائر، ط1، 2011، ص141.

[20] المصدر السابق، ص98.

[21] ينظر: المرجع السابق، ص17.

[22] مصطفى لطفي المنفلوطي، الفضيلة، بيت الحكمة للنشر والتوزيع: العلمة، الجزائر، ط1، 2011، ص141.